

المؤتمر العالمي السادس
لبديع الزمان سعيد النورسي

العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور
(البحوث العربية)

ISBN: 975-6438-14-2

Publication: Söz Basım

Year: 2002, İstanbul

الأخلاق وركائزها عند الشيخ بديع الزمان النورسي

د.الحسين أيت سعيد(*)

إن إيماننا العميق، وشعورنا الأعمق بقوة تأثير رسائل النور، لناشئ عن النظر الثاقب، والتأمل الدقيق، والغوص وراء معاني كل كلمة زبرتها يد الشيخ سعيد النورسي. وبقينا منا بأن كتابات هذا المفكر العبقرى، والشخصية الإسلامية الفذة، لجديرة بالقراءات لمعانيها، وتحليل تراكيبيها، واستخلاص مضامينها، وتقريبها للقراء والناشئين، حتى يتذوقوا بحق حلاوة الكلمة الحقة، ويشهدوا تأثيرها على أنفسهم، ونجاحاتها في قلوبهم، ويعلموا أن سحر البيان، أقوى تأثيرا من أي مؤثر آخر وممدوح شرعا ومطلوب عرفا، وخاصة إذا كان في خدمة الحق والحقيقة.

وسحر البيان، نعمة وهبة من الله، يهبها من يشاء من عبادة، لقيم بها الحجة، وتستقيم بها المحجة ففي حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن من البيان لسحرا"⁽¹⁾.

وهل القرآن إلا بيان يأخذ بمجامع الأبواب، ويغلق مناقد الشك والارتياب، ويجعل المرء ينقاد للصواب، ويسعى للسداد، وإصابة طرائق الرشاد. وكل من تشبع بالتأملات القرآنية، وأسرارها الربانية، وجمال في كنوزها الثمينة، وعكف على اقتنائها واصطيادها بأي ثمن، فإنه تنعكس عليه أنواره، وتشتع عليه براهينه، ويتدفق قلبه بأسراره وحكمه، وتنساب معانيه على لسانه، كما ينساب الماء الرقاق على الرمال الصافية الفضية فيزيده بهاء، وينعكس عليها حسنا وجمالا، وبهاء وكمالا، وريادة واقتدارا.

(*) أستاذ التعليم العالي، ورئيس شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب.

والشيخ سعيد النورسي ، من هذه الطينة التي عاشت بالقرآن وعاشت له ، ومن الأفذاذ الذين وهبوا حياتهم له ، وجعلوها وقفا عليه مركوزا، وظلا له وارفا فسيحا ممدودا، حتى اختلط ذلك بلحمه ودمه، فكان القرآن كلمته، وسواطع برهانه حجته، ودقائق معانيه لهجته ولغته التي أشرفت عليه شمسها، وعدّها إلى العالمين بثقافته الفذة. وإذا كانت رسائل النور تعبر بجدارة عن هذا التلاحم بين القرآن وصاحبها ، فإن ما يلفت الأنظار فيها ، عمق الرؤية ، وصدق النية ، ومتانة الحجّة، وإصابة الحقيقة ، حتى كانت بحق مدرسة تربوية فريدة في القرن العشرين. وهذا الجانب التربوي ، له خصائصه الخاصة، ومميزاته المتميزة عند الشيخ النورسي في رسائله ، حيث أصبح ظاهرة ملحوظة في كل ما كتب ، وكان شغله الشاغل ، في كل ما دون وألف ، لتجربته الطويلة في ميدان معالجة النفوس ، وتمرسه بأساليب التربية القديمة والحديثة ، وتشربته مناهجها، وترسمه معالمها، واهتدائه بمناراتها وصوّاها.

وقد كانت التربية القرآنية النبوية قد ملأت عليه جميع أقطاره، واستأثرت باهتمامه، حتى كأنه عجن من طينتها، وصنع بقالبها، وأشربها حبا وعملا وسلوكا، وعقيدة وإيمانا، فصنعت منه أعجوبة عصره ومجدد زمانه، ومنحته قوة الأفذاذ، ونفسية العظماء، التي استطاع بها أن يجابه ما جابه من محن السجن والطرود ، والإبعاد، والحاكمات الغاشمة التي صاغها له الظالمون ، وحاكها له المعتدون.

هذا الجانب التربوي الهام ، هو الذي نسعى في هذا العرض الموجز لاستجلاء طرائقه، وملامح رؤيته له ، من خلال محاور ثلاثة ، نصوغها صياغة خاصة، تستند في الموضوع إلى نصوص من كلامه بإيجاز ، لا يخل بالمعنى ، ولا يفيض في التفاصيل.

المحور الأول : التربية على العقيدة ، وتركيز عظمة الله في النفوس

قد أخذت قضية تقرير عقيدة الإيمان بالله تعالى وبرسوله، حيزا هائلا في رسائل النور ، وكان التركيز فيها على هذه القضية، قطب الرحي، وأهم المهمات.

وقد أدرك الشيخ النورسي — رحمه الله — بإيمانه العميق ، أن النفوس لا يعالج ما فيها من أدواء وأمراض إلا الإيمان بالله عز وجل، وأنه لا يزيح ما تراكم عليها من ظلمات جهل الجاهلية الغابرة والمعاصرة إلا تسليط أشعة التوحيد عليها ، لأن داعي الفطرة فيها على الإيمان — رغم ما أصيب به من حواجز المعاصي والهوى — يغلب ذلك

كله ، ويستجيب لنداء الحق ، حينما يطل عليه بأنواره المشعة ، المبددة للظلام ، انسجاما مع الآفاق والأكوان في هذا النمط الفطري .

والمرء حينما يكون سادرا في جهالته، منهكما في آثامه ، مقيما على فساده وإفساده، ممعنا في نزواته، معرضا عن خالقه، فإنما هو شاذ في الكون ، ليس معه في انحرافه وظلمه أحد ممن هو أكبر وأقوى منه ، فالسماوات والأرضون، والأشجار والأحجار، وعمامة الخلق من العقلاء، خاضعون لله عز وجل ، معترفون بربوبيته ، متألهون بألوهيته، قال تعالى : " ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم ، والجبال والشجر ، والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب، ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء " (2)

فالعاصي في الكون ، كالسائر في الاتجاه المعاكس للمارة، في طريق ليس له إلا وجهة واحدة ، وماذا عساه يجني ، وهو يواجه سيلا متدفقا وعارما من الناس، يسرون ذات اليمين ، وهو يسير ذات الشمال، لن يجني إلا ظهرا مهيبا، وفؤادا عليلا، ولثنا متواصل، وسقوفا على حافة الطريق آخر المطاف ، كما قال تعالى : " ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ، فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق " (3)

هذا الأساس العقدي الذي ينجي من هذه المنزقات الخطيرة ، قد قرره الشيخ النورسي بأدلة دامغة ، ودخل له من أوسع أبوابه ، وأعطاه من نفسه ووقته، وإيضاحه ما يستحق .

وقد كانت رسائل النور، سيالة بتقرير دلائل التوحيد، وتربية النفوس عليها ، وملء مكامن النفوس بمحبة هذا التوحيد ، وتمثله ، والقيام بمقتضياته، حتى إنك إذا قلت: رسائل النور رسائل توحيد ، لم تعد الحقيقة ، ولم تتجاوز الوصف .

وبفضل الثقافة الواسعة، والعقل الفحاص المتأمل، والهمة الجواله في عالم الآفاق والأنفس عند الشيخ النورسي، فقد استطاع بذلك أن يسلك مسالك عديدة لإثبات هذه الحقائق، وإبرازها مشخصات، مشفوعات بدلائل ناصعة، وبأسلوب راق في فصاحته وبلاغته، يؤهله أن يعد من مصاف البلغاء الكبار، من أمثال الجرجاني، وابن الأثير وأصراهما.

ولم يأل جهدا في تنويع العبارة ، واستعمال الإشارة ، وتدليل الصعاب فيما أراد أن يقرره، حتى أصبحت النفوس تقبله تلقائيا، وتستسيغه اشتياقا وتتبعا، وكان التقسيم

الرصين والتبويب المتين، كافلا بإشعار القارئ أنه ينتقل بين حدائق ذات بجمجة، لا يشعر بالسآمة، بل يطالب بالمزيد.

وقد كان لهذا العمل ربانيته، وألطفه التي يشعر بها المؤلف دوماً، وهو يقرر ما يعجز عنه غيره من مدارك ألوهيته تعالى وربوبيته، من خلال آية المقروءة والمنظورة .
ولذلك زكت نفوس وطهرت من رجس الجاهلية الأولى والمعاصرة بهذه الرسائل، وربي عليها جيل، لا يزال يقدم التضحيات في سبيل مبادئه الخالدة. ولتأكيد ما قلناه بحججه الناصعة، نسوق ما يشفع لذلك من كلام صاحب رسائل النور، لنقرن الادعاء بحجته، والقضية ببرهانها، مقتصرين على ثلاث نصوص من كلامه :

النص الأول يقول فيه : " إن الله سبحانه وتعالى بألوهيته الجليلة ، ورحمته الجميلة ، وربوبيته الكبيرة، ورأفته الكريمة، وقدرته العظيمة، وحكمته اللطيفة، قد زين هذا الإنسان الصغير بجواس ومشاعر كثيرة جدا، وجمله بجوارح وأجهزة، وأعضاء مختلفة عديدة، ليشرع طبقات رحمته الواسعة ، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد ، ويعرفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويطلع عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها"⁽⁴⁾.
تأمل كيف استعمل المؤلف ألفاظا تحدث في القلوب هيبه المشهد، وحسامه القضية التي يقررها، وكيف قرن كل اسم بنظيره، مما أحدث لها جرسا خاصا، ورنينا مفعما بالأشواق، يُدخل الكلمات إلى القلوب، ويغرسها فيه بدون استئذان ، فما أروع لفظ الجليل إذا وضع بإزاء الجميل، فالأول يؤذن بالعظمة والاستعلاء ، والثاني ينبئ بال إعطاء والإغداق .

والكبرياء المشفوعة بالشفقة والرحمة ، هي من أرقى شاهد الربوبية.
وتأمل اقتران القدرة بالحكمة ، لينتابك شعور الغبطة والرضا بالله تعالى ربا وإله، لأن قدرته تنجيك في الشدائد، وحكمته تمنعك من الظلم والاعتداء.

النص الثاني يقول فيه : " الحياة هي نتيجة الكائنات، مثلما أن نتيجة الحياة هي الشكر والعبادة، فهما سبب خلق الكائنات، وعلة غايتها ، ونتيجتها المقصودة ، نعم إن خالق الكون سبحانه " الحي القيوم " إذ يعرف نفسه لذوي الحياة، ويحببها إليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى ، يطلب منهم شكرهم تجاه تلك النعم ، ومحبتهم إزاء تلك المحبة، وثناءهم واستحسانهم مقابل بدائع صنعه، وطاعتهم وعبوديتهم تجاه أوامره الربانية، فيكون الشكر والعبادة - حسب سر الربوبية هذا - أعظم غاية لجمع أنواع الحياة،

ويدورها يكون غاية الكون بأسره ، ومن هنا نرى أن القرآن الكريم يحث بجرارة، ويسوق برفق وعذوبة إلى الشكر والعبادة ، فيكرر كثيرا ويوضح أن العبادة خاصة لله وحده ، وأن الشكر والحمد لا يليقان حقا إلا به سبحانه " (5).

فها هو الشيخ النورسي ، قد وضع يده على حقيقة خلق الموجردات ، وبين أنها وجدت للشكر والعبادة ، كما قال تعالى : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (6) ولذلك يقومون بوظيفة العمل تجاه النعم التي منحها الباري ، وهي سبب محبتهم له، وقربهم منه، وإخلاصهم الود والعمل له.

ومن مشاكل التربية قديما وحديثا، التنظير دون التنجيز، والانشغال بالقوة العلمية عن القوة العملية ، فكانت طريقة الأنبياء وحدها ، هي المحققة للغاية المقصودة من خلق العباد ، حينما جمعوا بين العلم والعمل، وبين النظرية وتطبيقاتها.

وهذا المنهج نفسه ، هو الذي قرره النورسي — رحمه الله — ودعا إليه ونشأ عليه طلابه ، فكانت به التربية مجدية، والمعارف مؤثرة، والشخصيات متزنة وعادلة.

النص الثالث يقول فيه : " فكمال انتظام الشريعة الغراء، وجمال توازنها الدقيق، وحسن تناسب أحكامها ورسالتها، كل منها شاهد عدل لا يجرح ، وبرهان قاطع باهر، لا يدنو منه الريب أبدا على أحقبة القرآن الكريم .

بمعنى أن البيانات القرآنية ، لا يمكن أن تستند إلى علم جزئي لبشر ، ولا سيما إنسان أُمِّي، بل لا بد أن تستند إلى علم واسع محيط بكل شيء، والبصير بجميع الأشياء معا" (7)

محور التربية بتركيز محبة النبي صلى الله عليه وسلم في النفوس،

وتحسيدها بالعمل النافع والاتباع الحق .

إن الطامعين في تركية نفوسهم على غير مهيع محمد صلى الله عليه وسلم، لهم في تيه من الظلماء يضربون ، وفي أودية من الهلاك يتخبطون، وفي عمه من سفسطة القول يترددون.

وقد أبى الله أن يقبل أحدا أتاه من غير نهج محمد عليه السلام ، وأوصد الأبواب على كل تربية وتزكية لم تخضع لأحواله، ولا سارت على مقاله وفعاله ، ذلك أن الله تعالى جمع فيه وفي شرعته الكمالات الحسية والمعنوية التي لم تجتمع لنبي قبله بله غيره .

وعن الكامل تصدر الكمالات، ومن الجميل يستعار الجمال ، وعن النوراني تصدر الأنوار وتقتبس ، فكمال الذات ، يستلزم كمال الفعال ، وجمال الذات، يستلزم جميل

الأفعال، وكمال العلم ، يقتضي كمال المعارف والعلوم والنظم والمناهج، المأخوذة عن كامل العلم .

وهذا الكمال بشموليته، لم يجتمع إلا لني الله صلى الله عليه وسلم ، فمن سعى لإكمال نفسه وتزكيتها أحق التزكية ، وراح لتصحيح معارفه عن الله والوجود والكون والأحياء، فليقتبس ذلك كله من مشكاة النبوة ، وإلا كانت أفعاله ضربة لازب ، لا تنجيه ولا تُدينه، ولا تسرُّه، ولا تُعتقه من أسر عدوه العنود، وألد خصمائه في الوجود، ومن هنا ، فالنبوة ليس ضرورة ظرفية، وحاجة ملحة فقط، وإنما هي فوق الضرورة بمراحل، وبها يتحقق الوجود للموجودات، وتُعرف ذواتها بما لها وعليها ، ومصائرُها كيف تكون وكيف تصير.

هذه النبوة ودورها التربوي — بهذا الثقل وهذه المركزية — لم يأل الشيخ سعيد النورسي جهدا في إعطائها ما تستحق من البيان، والتركيز والإمعان، والتبجيل والإجلال، والتمجيد والإعلان .

وها نحن نقطف من رياض أنوار كلماته ، ودرر لحيه، ما ينير هذه الحقيقة ويجليها، ويجعلها في متناول العطاش لمكارم النبوة الخاتمة.

وسنورد كلامه العذب السلسيل في إشراقات ، لأنه حقا إشراقات.

الإشراق الأولى : يقول فيها : " ما دام — عليه الصلاة والسلام — متصفا بأسمى مراتب محاسن الأخلاق باتفاق الأولياء والأعداء، وأنه صلى الله عليه وسلم هو المصطفى المختار من بين بني البشر ، وهو أشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع ، وما دام هو أكمل إنسان، بل أكمل قدوة ومرشد بدلالة آلاف المعجزات، وشهادة العالم الإسلامي الذي كونه، وبكَمالاته الشخصية، بتصديق حقائق ما بلغه من القرآن الحكيم، وما دام ملايين من أهل الكمال قد سموا في مراتب الكمالات ، وترقوا فيها بثمرات اتباعه، فوصلوا إلى سعادة الدارين، فلا بد أن سنة هذا النبي الكريم وحركاته، هي أفضل نموذج للاقتداء، وأكملُ مرشد للاتباع والسلوك، وأحكم دستور، وأعظم قانون يتخذه المسلم أساسا في تنظيم حياته.

فالسعيدُ المحظوظ ، هو من له أوفر نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة، ومن لم يتبع السنة فهو في خسران مبین، إن كان متكاسلا عنها، وفي جناية كبرى، إن كان غير مكترث بها، وفي ضلالة عظيمة إن كان منتقدا لها بما يوميح للتكذيب بها" (8)

تدبر هذا النص الذي يفيض إيمانا بالسنة، وتحمسا لها، وغيره عليها، والرفع من قيمتها والتذكير بأهميتها، وتنزيلها أعلى منازل الاعتبار والادكار، وجعلها الدستور الخالد، وآيات الهداية التي لا يُعرض عنها إلا شقي، ولا يهندي للعمل بها إلا محبوب لله، ذو مكانة عنده.

وإن تعجب، فاعجب لرصافة جمل هذا النص كيف اصطفت في اتساق ونظام عجيب يأخذ بالألباب، ويزيح الشك عن ذوي الارتياب، فهو — والله إشادة بالسنة، ودعوة إليها، والتحلي بأخلاقها، والفوز بمكارمها ومباهجها .

الإشراق الثانية : يقول فيها : " لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلق في أفضل وضع وأعدله، وفي أكمل صورة وأتمها، فحركائه وسكناته، قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة ، وسيرته الشريفة تبين هذا بيانا قاطعا، وبوضوح تام بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته، متجنباً الإفراط والتفريط " (9)

اكتشف بثاقب نظرك واقعية هذا الكلام، وأحقيقته بالإجلال والإكبار ، لأنه تعبير رائع عن كمال الذات المحمدية التي تصدر عنها الكمالات ، وتستضاء بنورها الكائنات .

والشيخ النورسي إذ يقرر هذه الحقيقة، لم يشذ عن موكب ملايين العلماء والعقلاء الذين أقرروا بذلك وقرروه ، وأذاعوه بين الأنام ونشروه ، حتى صار سيرة تتلى ، ومحجة تقتفى .

وما أروع أن تكون قافلة الإنسان في موكب له امتداد تاريخي ، وجغرافي، ونفسي وآفاقي ، لا يشعر فيه بالغرابة أبداً ، ولا بهواجس الانفراد مطلقاً .

الإشراق الثالثة : يقول فيها : " إن محبة الله تستلزم اتباع السنة المطهرة وتنتجه، فطوبى لمن كان حظه وافرا من ذلك الاتباع، وويل لمن لا يقدر السنة الشريفة حق قدرها، فيخوض في البدع.....

إن السنة النبوية المطهرة في حقيقة أمرها، هي أدب عظيم، فليس فيها مسألة إلا وتنطوي على أدب ونور عظيم ...

نعم ، فمن يمعن النظر في السيرة النبوية ، ويحيط علما بالسنة المطهرة ، يدرك يقينا أن الله سبحانه وتعالى ، قد جمع أصول الآداب وقواعدها في حبيبه صلى الله عليه وسلم، فالذي يهجر سننه المطهرة ويجافئها ، فقد هجر منابع الآداب وأصوله ، فيحرم نفسه من خير عظيم ، ويظل محروما من لطف الرب الكريم ، ويقع في سوء أدب وبييل " (10)

هذه الإشادة بالسنة النبوية، وربط صوابية العمل به، والحث على التحلي بها، والتخلي عما سواها مما ابتدع وانتحل، ونسب للدين زيفا وجهلا، ما هو إلا بيان جلي وتفسير حفي من المؤلف لقوله تعالى: " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (11).

والسعادة الأبدية مربوطة بهذا الاتباع، ومشدودة إليه، وموصولة الحبل به، فيا ثبور من سعى في قطع الحبال الموصولة، أو بتر الوشائج المربوطة، أو فك العلائق المشدودة، ولكم يكون تعسا من أعرض عن الحكم الحمدي، وجوامع كلمه التي تحويها سننه، ويبحث عنها في كلام من لا يقاس به ولا يدانيه من البشر، إنه الغبن والخسارة بكل ضروبه وصنوفه.

الإشراقة الرابعة: يقول فيها: " أيها الناس، أيها المسلمون، اعلموا كم هو انعدام للوجدان، وفقدان للعقل، إعراضكم عن سنن هذا النبي الرؤوف الرحيم، وعما بلغ من أحكام، لحد إنكاركم شفقته البديهة، واتهام رأفته المشاهدة، وهو الذي أرشدكم برأفته الواسعة، وبذل كل ما أوتي بها....

إن دساتير المسائل الشرعية والسنة النبوية، أفضل دواء وأنفعه للأمراض الروحية، والعقلية، والقلبية، ولا سيما الاجتماعية منها، فأنا أعلن بمشاهدي وإحساسي هذا، وقد أشعرت الآخرين بشيء منها في الرسائل بأنه لا يمكن أن تسد مسد تلك المسائل أية حلول فلسفية، ولا أية مسألة حكيمة، فالذين يرتابون من ادعائي هذا، عليهم مراجعة أجزاء رسائل النور، فليقدر إذن مدى الربح العظيم، في السعي لا تباع سنة هذه الذات المباركة، والجد في طلبها على قدر الاستطاعة، ومدى السعادة للحياة الأبدية، ومدى النفع في الحياة الدنيا " (12)

خذ أيها الباحث عن الحقيقة من تجربة من جرب الدواء النافع، والإكسير الناجع في شفاء القلوب والأبدان، وإزاحة ما ران على الأفئدة من الأوزار والآثام والأدران. عليك أن نسبح في نهر السنة النبوية لتطهر مما علق بك، وأثقل أردانك، وحال بينك وبين الوصول إلى رب العالمين، وحجرك عن الظفر بنعيم الجنان، وكرام الخلان.

محور التربية بالتذكير بإنعام الله وإفضاله.

هذا المنحى من التربية، كان جلي القسمات، واضح الدلالات في القرآن كله، وهو أوسع أبواب يدخل منه الداخل إلى معرفة تفرد الله بربوبيته وألوهيته.

والقرآن الكريم حينما يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى وشكره، فإنه يقدم لهم النعم الظاهرة والباطنة، دليلاً على استحقاقه للعبادة، وتفرد به بالإعطاء والمنح. ولا شك أن الإنسان مجبول على الاعتراف بالنعمة، والاقتراب من مُسديها، ومحبتة والشوق إليه، فإذا ذكر بالنعمة في غمرة نسيانه أو ذهوله، كان ذلك أدعى لقبول ما دعي له، وأسرع إثارة واستجابة لما ألقى إليه، بطواعية ورغبة. هذا المنهج الموجز الفعال، لم يأل الشيخ النورسي جهداً في صرف الأنظار إليه، ودعوة الناس إلى الإيمان من بابه، وإشعار المريين بقيمته وأهميته، ونتائجه الملموسة في نفوس المستجيبين له من طلبته ومحبيه .

إن أسعد لحظات الإنسان، أن يدعى لمقابلة جميل بجميل، وأن يحسن لمن أحسن إليه، وأن يخدم من أسدى إليه معروفاً، حتى ولو كان بالكلمة الطيبة، والشعور الصادق، والفؤاد المفعوم بالحببة للمحسن، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر: "من أسدى إليكم معروفاً فكافؤوه، فإن لم تستطيعوا أن تكافؤوه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه".⁽¹³⁾

وقال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد القلوب إحسان

وقال آخر :

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلوا وأما وجهه فجميل

وقال ابن عباس: " ما رأيت رجلاً أوليته معروفاً إلا أضاء ما بيني وبينه "

وقال: " المعروف أئمن زرع ، وأفضل كنز، ولا يتم إلا بثلاث خصال: بتعجيله، وتصغيره، وستره ، فإذا عجل فقد هنى، وإذا صغر فقد عظم، وإذا ستر فقد تم"⁽¹⁴⁾ فإذا كان صنع الجميل بهذه المثابة عند الناس، ولا يضيع من بعضهم لبعض، فجميل الله وإحسانه إليهم ، أولى أن لا ينسى وأن لا يجفى .

هذا النهج الموجز الفعال، لم يأل الشيخ النورسي جهداً في صرف الأنظار إليه ودعوة الخليفة إلى الإيمان به، وإشعار المريين بقيمته وأهميته ونتائجه الملموسة، في نفوس المستجيبين له والراغبين فيه.

وسنقطف من رحيق كلامه ، ما يؤيد هذا الحور ، وينير دروبه ، ويجلي محياه ويصنع

الباطل صفة لا يبدئ معها ولا يعيد، وسنجعل ذلك في إلهامين :

الإلهام الأول، يقول فيه : " إن الله سبحانه وتعالى بألوهيته الجليلة ، ورحمته الجميلة، وربوبيته الكبيرة، ورأفته الكريمة، وقدرته العظيمة، وحكمته اللطيفة، قد زين هذا الإنسان الصغير بحواس ومشاعر كثيرة جدا، وحمله بجوارح وأجهزة وأعطاء مختلفة عديدة، ليشعر بطبقات رحمته الواسعة ، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد ، ويعرفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة ، على أنواع تجلياته التي لا تحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويجببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها "(15)

فانظر كيف يذكر الإنسان بنعم الله عليه في جسمه، ويدعوه للتأمل فيما فيه من عجائب الخلق التي تدعو إلى الاعتراف للمحسن بإنعامه، ومحبه والتزلف إليه، والإحسان بملك الإنسان ، والإنسان أسير النعمة ، وعبد من أسداها له، وأكرمه بها.

وإحسانُ الله تعالى لخلقه، وإنعامه عليهم ، ليس لغرض يعود إليه ، وإنما هو مصلحة محضة للعبد ، يجني ثمار إحسانه له ، بداية ونهاية .

وهذا وحده يستدعي من العبد أن يجب الله بكل جوارحه، وأن يخلص في تلك المحبة، إذا أراد أن يدخل في عداد المحسنين .

فالتربية بالنعم وبالتذكير بها ، من أسهل الطرق للوصول للقلوب ، واستمالتها إلى المحبوب المطلوب ، الذي يحتاج إليه في كل لحظة .

الإلهام الثاني ، يقول فيه: " تصور وأنت تستشعر عجزك وحاجتك الشديدة إلى من يساعذك ويعينك ، لإنقاذ من تحن عليهم، وتشفق على أوضاعهم : من الأقارب والفقراء وحتى المخلوقات الضعيفة المحتاجة، إذا بأحدهم يبرز في الميدان، ويحسن لأولئك، ويتفضل عليهم ، ويسخغ عليهم نعمه بما تريده وترغبه، فكم تطيب نفسك، وكم ترتاح إلى اسمه " المنعم " و" الكريم " ؟

وكم تنبسط أساريرك، وتنشرح من هذين الاسمين ، بل كم يأخذ ذلك الشخص من إعجابك وتقديرك ، وكم تنتوجه إليه بالحب بذينك الاسمين والعنوانين "(16)

تمعن في هذا المثل المضروب، الذي يقرب صورة الإحسان والمحسن إلى النفوس ، في صورة محسوسة ، يرى الإنسان مآت منها تقع أمام بصره ، ويشعر بوقعها من النفوس وموقعها من الوجود ، ويشاهد آثارها المنعكس على الذات الإنسانية في شكل الاعتراف اللساني، والخضوع الأعضاءي ، والشوق القلبي، والسعي الدؤوب في إرضاء المحسن بشتى الصور والألوان من الإرضاء.

وختاما ، فإن أسلوب الشيخ سعيد النورسي في معالجة القضايا التربوية، أسلوب راق جدا، وطريقة جدية مستقيمة، مستقاة من استقامة القرآن وجدته، ومن عايش رسائل النور فسيدرك لا محالة، أنه في روضة يانعة الأزهار، دانية القطوف والثمار، متنوعة الرياحين والأشجار ، عذبة السلسيل، شهية المورد، متفتحة الأفحوان، مفعمة بعطاء غير مكدر ، ونظرة غير مشوبة بالقصور، تغدق على الجوال بين ربوعها آيات الحكمة، وعظات اليقظة، وترياق الغفلة، فهي سر مكنون، وكنز مأمون، وتجارة لن تبور، رحم الله مؤلفها، وناشرها، ونفع بما طابها، وجعلهم هداة مهتدين، والحمد لله رب العالمين.

الموامش

- (1) أخرجه البخاري – الفتح – في النكاح /109/9/ وفي الطب – 10 / 247 من حديث ابن عمر، ومسلم في الجمعة – 594/2 من حديث عمار بن ياسر
- (2) سورة الحج – 18
- (2) السورة نفسها – 31
- (3) الكلمات – 774/1
- (4) الاسم الأعظم – 84
- (5) الذاريات – 56
- (6) الكلمات – 114 /1
- (7) الاسم الأعظم – 31
- (8) السنة – 33
- (9) المصدر نفسه – 18 /15
- (10) آل عمران – 31
- (11) السنة – 20 – 21 – 22
- (12) أخرجه أبو داود في الزكاة – 128/2
- (13) بهجة المجالس لابن عبد البر – 303/302/1
- (15) الكلمات – 774/1